زعماء الحركة القومية

السيد محمد كريم

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

(٢)

اقتربت الحملة الفرنسية من مياه الإسكندرية فى اليوم الأخير من شهر يونيو — وكان الفرنسيون ينظرون إلى الشعب المصرى ... نظرة العملاق الضخم .. إلى القزم الضئيل — الذى يستطيعون سحقه فى دقائق معدودات !

ألم يقرأوا من قبل ما كتبه الرحالة الفرنسيون عن سهولة فتح مصر ؟

ألم يخبرهم « فولنى » بأن الاستيلاء على البلاد ، والسيطرة عليها .. لا يتطلب إلا عددا قليلا من الرجال ؟

ألم يبين لهم ضعف الحصون ، وقلة الذخيرة ، وعجز الإسكندرية عن المقاومة .. فوصفها بقوله :

« إنه ليس فى المدينة سوى أربعة مدافع فى حالة صالحة — وليس بين الحامية التى يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه إصابة المرمى — بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين ؟ »

فماذا ينتظر الفرنسيون بعد كل هذا الوصف الذى وصفه « فولنى » وغيره من الرحالة والتجار الذين زاروا مصر من قبل ؟!

وهل تعجز مدافعهم الضخمة عن تحطيم أسوار الإسكندرية أو تخريب المدينة كلها إذا لزم الأمر ؟

إلا أن ذلك كله سهل يسير .. وليست هناك قوة فى الأرض تستطيع أن توقف تقدم الجيش الفرنسى الظافر ، أو تحطم آمال نابليون فى تكوين إمبراطورية شرقية عظيمة

٢٤ . ٣٩

ولقد كان « نابليون » يظن أن المصريين سيستقبلونه هاتفين مرحبين — وسيضعون فوق رأسه أكاليل الغار .. أينما سار ، وحيثما كان — وكان أبعد ما يتصوره .. أن يقف المصريون فى وجهه .. أو يقابلوه بالقوة والعدوان !

ولذلك بعث إلى قنصل فرنسا يستدعيه ، قبل أن يبدأ الجنود بالنزول إلى البر ... وفى اليوم التالى عاد القنصل ومعه عدد من البحارة أرسلهم السيد محمد كريم لحراسته ، وليعودوا به بعد أن ينتهى من مقابلته للفرنسيين

فأخبرهم القنصل بثورة الشعب وهياجه ، واستعداده للنضال والمقاومة .. كما أخبرهم أن أسطولا إنجليزيا يبحث عنهم فى عرض البحر .. وأنه كان بالثغر ولم يغادره إلا عشية أمس الأول

فلما سمع نابليون حديث القنصل ، خشى أن يباغته الأميرال نلسن بأسطوله ، ولذلك أصدر أوامره إلى القواد بمحاصرة الإسكندرية ، وتطويقها من ثلاث جهات

« [1] وسارت القوة فى منتصف الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢ يوليو بمحاذاة الشاطئ ، فوصلت تجاه أسوار المدينة عند شروق الشمس ، وأخذت تحاصرها فى الضحى — الجنرال مينو من الغرب .. والجنرال بون من جهة باب رشيد .. والجنرال كليبر من باب سدرة — بينما وقف نابليون على قاعدة عمود السوارى ، واتخذها معسكره العام .. يرقب منها حركة الهجوم ، ويصدر أوامره لقواد جيشه ... »

* * *

ولم يكد السيد محمد كريم يرى الجيوش الفرنسية القادمة ... حتى أصدر أوامره إلى أهالى الإسكندرية بالصعود فوق الأسوار ، ومقابلة القوة بمثلها ، وصد العدوان بالعدوان

ووقف بنفسه فوق قلعة « قايتباى » ومعه فريق من القائلة لا ليشرف على المعركة كما فعل نابليون ، ولكن ليحارب بنفسه كما يفعل غيره من أهالى الإسكندرية ، وليضرب لهم أروع

(١) عبد الرحمن الرافعى وتاريخ الحركة القومية جـ١ ص ١٣٥

الأمثلة فى الجهاد والكفاح والتضحية

وحينما بدأت المعركة ، وضع المصريون أرواحهم فوق أيديهم وباعوها رخيصة فى سبيل الوطن ، وجعلوا يعطرون العدو بوابل من رصاص بنادقهم

وكان السيد محمد كريم — طوال المعركة — يثير النفوس ، ويستحث الهمم ، ويقوى العزائم ، وقد استطاع المصريون خلال هذه المعركة أن يواجهوا الفرنسيين ، ويقتلوا منهم عددا ليس باليسير ...

وقد أصيب الجنرال كليبر أثناء الموقعة بعيار نارى فى جبهته ، كما أصيب الجنرال مينو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور ، وكادت تودى بحياته ، ولذلك كتب الجنرال مينو إلى نابليون يقول :

« (٢) إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء ، وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم ... لأن الأهالى قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة .. وثبات عظيم »

ولما رأى « نابليون » استماتة الشعب المصرى فى الدفاع عن الاسكندرية ، نظر إلى أسوار المدينة فلاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة رممت حديثا ...

فطلب من رجاله أن يوجهوا مدافعهم تجاه هذه الأسوار ، وظلوا يضربونها حتى عجزت عن المقاومة ، وبدأ الجنود يدخلون المدينة من الثغرات التى أحدثوها ، حتى وصلوا إلى الجهة الآهلة بالسكان .. فأخذ الأهالى يطلقون عليهم الرصاص .. حتى كاد نابليون نفسه أن يصاب برصاصة قاتلة .. وكذلك قال سكرتيره الخاص :

« (٣) دخل بونابرت المدينة من حارة ضيقة .. لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبا إلى جنب .. وكنت أرافقه فى سيره .. فأوقفتنا طلقات رصاص .. صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى النوافذ .. واستمرا يطلقان الرصاص فتقدم جنود الحرس ، وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم ، وقتلوا الرجل والمرأة »

ولقد ظل السيد محمد كريم يدافع عن المدينة ، حتى ضعفت الحامية عن المقاومة .. فكف عن القتال ، وسلم المدينة .. ولم يكن فى ذلك التسليم ما يقلل من جهاد السيد محمد كريم .. وحسن بلاء أتباعه .. وإنما كان ذلك منه حكمة وحزما .. وحسن تقدير لعواقب الأمور ...

يقول أحد الحكماء :

« لا عار على أمة قليلة العدد .. ضعيفة القوة .. إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة .. وإنما العار الذى لا يمحوه كر الدهر .. هو أن تسعى الأمة .. أو أحد رجالها .. أو طائفة منهم .. لتمكين أيدى العدو من نواصيهم .. »

الكلام صلة

عبد الباسط محمد حسن

(٢) نفس المصدر ص ١٣٢

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ص ١٣٦